قداس أحد الكنعانية
في كنيسة رئيسي الملائكة ميخائيل وجبرائيل
في ١٧ شباط ٢٠٠٢

باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد آمين.

هذه المرأة يا أحبة، هي مثال لكل أم تحمل آلام أولادها في أعماقها لأنها لا تنفصل البتة عن أفراحهم أو عن آلامهم أو عن حياتهم. ابنة هذه السيدة مريضة تتألم، فأتت إلى يسوع وقالت له: ارحمني يا رب، يا ابن داوود. لم تقل هذه المرأة، يا رب ارحم ابنتي فإنها تتألم، لا بل قالت: ارحمني لأن آلامي أوسع من آلام ابنتي فإن قلبي كقلب كل أم تتفطّر على آلام ابنتها. صراخ هذه الأم كصراخ أي أم تأتي إلى الرب وتسأله أن يرحمها بشفاء من تألم ومن مرض من أولادها.

هذه كانت من الوثنيين، من المرفوضين من اليهود كالسامريين. هذه خرجت من تخومي أي من حدود صور وصيدا وكما يقول الإنجيلي بأن يسوع خرج إلى نواحي صور وصيدا وإذا بامرأة كنعانية قد خرجت من تلك التخوم وصرخت إليه. يسوع يخرج من حيث كان ليلاقي من يأتي إليه.

نظن نحن بأننا نرفع الصلاة إلى الرب لأننا نأتي إليه. في هذا الإنجيل يقول لنا متى بأن يسوع يلاقينا في أي اتجاه نذهب إليه. كيفما اتجهنا مفتشين عنه سنجده في طريقنا. وإن أتينا إليه وهو يستطيع أن يظهر نفسه لنا، إن كنا في البيت أو في أي مكان آخر. ولكن يسوع يأتي ليلاقينا لكي يختبر محبتنا له، لكي يختبر إرادتنا، لكي يختبر شوقنا إليه. ألا يستطيع الرب أن يلاقينا في البيت، أن يكون معنا في كل مكان. لا يستطيع وحسب بل هو في كل مكان، حاضر في كل مكان. ولكنه يرانا في كل تحركاتنا ويسمح بأن نتجه إليه حفاظاً على حريتنا. الله لا يجبر أحد للمجيء إليه. من الخطوة الأولى الرب يُسرع إليّ.

هذه المرأة الكنعانية الوثنية المرفوضة من اليهود، كانت تسمع عن يسوع الذي يشفي ويساعد المتألمين ولا يكسر قلبا بل يضمّده. سمعت بأن هذا الذي يأتي ليخلص العالم، الذي يأتي من سلالة داوود، كما قال هؤلاء الذين يبعدونها عنه، صرخت إليه قائلة: ارحمني يا رب، يا ابن داوود فإن ابنتي بها شيطان يعذّبها جداً. فلم يجبها بكلمة وهو الكلمة. غريب أنه لم يجاوب. كان يجاوبها، يكلم قلبها، كان يسأل أعماقها، هل تريد حقا أن يشفي ابنتها. أهو يجربها.

من السهل جداً الالتجاء لإنسان يساعدنا عند الضرورة، لكن هل بالفعل نحن نحبه، نؤمن فيه. يسوع لم يجاوب، أولاً ليختبر حبها وإيمانها، وثانياً ليسمع تذمّر تلاميذه. التلاميذ كانوا من اليهود. إذا كنت جالسا في غرفتك وتسمع الباب يدقّ، تذهب لتفتح فتجد ربما فقير يدق. فلا تسأل عنه وتهتم بالضيف. هكذا فعلوا التلاميذ، اشف لها ابنتها ولننته، فهي تصرخ وتزعجنا. أجاب يسوع: ألا يقول الأنبياء أنني أتيت فقط لأهل إسرائيل، ألا تقولون هكذا أنتم اليهود. أنا هنا حسب قولكم فقط لجماعة معينة وأنتم تعتقدون بأنكم واضعين الإيمان في جرة مغلقة وهي لكم وحدكم.

جاءت المرأة وسجدت له قائلة: ساعدني يا رب، أغثني يا رب. فأجاب قائلاً: ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويُلقى للكلاب. أنا هنا لأهل إسرائيل، ومن غير المفروض أن أعطي لغيرهم، أن أعطي مثلاً الخبز الذي للعائلة لغير العائلة. هذا القول مهم جداً. نعم يا رب، أعلم هذا القول. فإن الكلاب تأكل أيضاً من الفتات التي تسقط من موائد أربابها. إذاً أنا بهذا المثل، مثل الكلب، أنا راضي أن أكون مثل هذا الكلب وأن أبقى آكل من الفتات التي يعطيني إياها سيدي.

عندما أقرأ هذه الآية، فهناك شيء جميل وعميق جداً، وهو أن المؤمن يتمنى أن يكون كلب لدار سيده المسيح وتغمره السعادة. يقول داوود: واحدة سألت من الرب، وإياها ألتمس أن أسكن في ديار الرب إلى الأبد أي شهيق قلبه، طلبته العميقة، أن يبقى في بيت ربه إلى الأبد لكي أنظر جمال الرب وأتأمل في هيكله. تقول هذه المرأة بأنها راضية أن تكون كلبة ولكن اجعلها دائما تحت طاولتك، لأن خبزك ولو كان صغيراً جداً، يشبعني ويشبع عائلتي وأولادي، مال الدنيا بكامله، ولو كنت أنا غني ومرصع بكل الجواهر والألماس والذهب والسيارات الفخمة والطيارات... أنت تراب وإلى التراب تعود. ولكن إذا سكن الرب قلبك فأنت أصبحت في الأبدية، في الحياة التي لا نهاية لها.

يقول لها يسوع: يا امرأة، عظيم إيمانك، فأنت لست من هذه الجماعة، مرفوضة، مرذولة، وأنت ترين ما لا يرونه. هذا هو الإيمان. كان بإمكان ربنا أن يقول لها: عظيم هو إلحاحك، صبرك، محبتك، تواضعك، فلقد قلنا لك كلبة ولم تسألي. قال لها: عظيم هو إيمانك. لأن الإنسان المؤمن تأتيه كل هذه الفضائل مجانا. أقصد المؤمن الحقيقي لا التجاري الذي يحكي ربنا لأنه يحتاجه، لا يمكننا أن نزعّله لأننا سنحتاجه يوما ما. هذا الإيمان، ربنا لا يستمع إليه. إيمان هذه المرأة هو الإيمان الذي يرفع الإنسان إلى الرؤية الحقيقية، إلى رؤية الرب وملكوته، يرفع الإنسان من اليأس، يجعلك تشعر بأن الله لاصق فيك، بأن يسوع واقف دائما على الباب وما عليّ سوى أن أفتح له. هذا الإيمان هو من يجعلني أعرف المعرفة الحقيقية.

عندما يقول بولس الرسول: لذلك اخرجوا من بينهم واعتزلوا. يقول الرب، ولا يقصد عن المرأة الكنعانية، عن غير المسيحي، بل يقصد اعتزل عن الشرير. أي إذا إنسان أخلاقه ليست جيدة وأنت مبسوط معه، فهذا يعني بأنه حالك أيضاً. يقول اعتزلوا، اتركوا هذا الإنسان. إنما الإنسان الصالح، ربنا ساكن فيه، في كل مكان وفي كل دين وحيثما رأيت إنسان. الله يسكن فيه ما عليك سوى فتح قلبك.

يا أحبة، التعزية في هذا الإنجيل أنه من طلب الله بإيمان كان من كان، حيث ما كان، يسمع الله له. المؤمن بالله يسمع له الله ويدخله إلى ملكوته. مهما كان الصليب كبيرا، وقدمت القربان، وضعتم الزهور والشمع، ودفعنا المال وعملنا في الكنيسة... إذا كل هذه الأمور لم تكن نابعة بعفوية من حبنا لله، أي هذه الأم لا يمكنها الذهاب إلى مكان دون التفكير بأولادها، لا أحد يجبرها. الأم الحقيقية، إذا سافرت لا ترتاح أو تفرح لأنها دون أولادها. هكذا يقول يسوع، أن الإيمان الحقيقي هو من يجعلني تقديم القربان، محبتي الحقيقية تجعلني أقدم الزهور للرب والشمع قائلة: يا رب أنا مستعد أن أحترق كالشمعة أمامك لأصبح نور لأنك أنت نور وحيث أنت لا وجود للظلمة.

عندما يفكر كل واحد منا، بدءا مني بهذه المرأة، هل نعيش كذلك، هل نؤمن بهذه الطريقة؟ الحزين، هل يؤمن بأن حبيبه هو مع الله؟ إيماننا بأن الله هو ملك السماء والأرض، بأنه هو الحياة الأبدية، هو الملكوت. أي عندما يكون فيّ، هو سيدي وملكي وربي وحياتي ولا أشتهي حياة أخرى. وعندما أحب الله لأنه الله لا لأني أريد دخول الملكوت. ٩٠ بالمئة من الناس تحب الآخر من أجل المصلحة الذاتية.

اليوم، تقول لنا هذه الوثنية، أنه عندما تريد أن تحب، عليك الاتحاد بالآخر. هناك كثيرين يتكلمون عن الله. الإيمان ليس أن نتكلم عن الله، عن الإنجيل ونحفظ الآيات وعن الآباء القديسين. الإيمان هو أن أصير ابن الله، متحد به وأضع عقلي على جنب. كما قال يوحنا: أن أصبح مولود، لا من دم ولا مشيئة جسد ولا بمشيئة رجل، بل من الله وُلدت. آمين.